الشعب الذي تحدى حلف الأطلسي

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:249]

دُلني إن استطعت بالعيان أو بالخبر، فيمن بقى أو فيمن غبر، على شعب غير الشعب الجزائري الباسل الحر ألح عليه الاستعمار الفرنسي الكافر الفاجر الأهوج بالقهر والفقر، والعذاب والخراب، وسَلب الاستقلال، وسوء الاستغلال، وفساد التعليم، ونسخ اللغة، ومسخ العقيدة، طوال ثلاثين ومائة عام، ثم لا تزال في رأسه نخوة العروبة، وفي نفسه حمية الإسلام، وفي يده سيف الفتوح يذكر ولا ينسى أن له وطنا يحتله الغريب ويستغله المستعمر، على ظهره الولد والبلد والرزق والأمل، وفي بطنه الآباء والأجداد والأمجاد والذكرى، فجاهد بالسيف، وصابر بالعزم، ورابط بالقوة، ثم ابتلاه العدو في ماله وفي نفسه بالتقتيل والتنكيل والأذى فما وهن لما أصابه في سبيل وطنه ودينه وما ضع وما استكان !.

فما أراد الله لمأساة الجزائر أن تبلغ فصلها الأخير سول الحمق والطيش لرئيس الحكومة الفرنسية (جي موليه) أن يختطف من الجو زعماء الثورة الجزائرية أحمد ابن بيلا ورفاقه وهم في طريقهم إلى تونس، فهب الجزائريون هبة الإعصار العاتي فزلزلوا الأرض الطيبة تحت أقدام الغزاة والغوازي فطاشوا طيش الفراش والقوا بأنفسهم في نار الثورة. فلما أكلتهم أمدهم (جي موليه) ومن بعده (ديجول) بثلاثة أرباع المليون من جنود فرنسا، يشد أزرهم حلف شمال الأطلسي بالسلاح والعتاد والمال، ويقوي أمرهم خمسمائة مليون من الناس بالتعصب والهوى والرأي. كل هذا العدد وتلك العُدد لقتال عشرة ملايين من الجزائريين لم يلق (لاكوست) منهم غير عشرة آلاف من الثوار العزل. فماذا كان مصير الجيش الجرار، المسلح بالحديد والنار؟ تخطفته المنايا من كل جانب، وأدركته الهزائم في كل مكان، حتى قال قائلوهم: لا يمكن أن يكون هؤلاء الشياطين هم الآدميين الذين عرفناهم هنا منذ قرن وثلث، فربيناهم على الاستكانة، ودربناهم على الطاعة، وقتلنا في نفوسهم الإسلام، وأمتنا على ألسنتهم العربية، وجهدنا بالظهير البربري أن نجنسهم بالبربرية، وأن نبشرهم بالمسيحية، وأن نفصل بينهم وبين العرب في

الأقطار الأخرى، فمنعنا دخول الكتب والصحف والمجلات، وقطعنا أسباب المواصلات والمعاملات، وأردنا أن نجعلهم قلة مستضعفة في البلاد، فسهلنا الهجرة للفرنسيين، وأسكناهم أطيب البلاد، وأقطعناهم أخصب الأرض، وملكناهم مقاليد الأمور، حتى أصبح الجزائريون في رأينا مسوخا من غير جنس ولا لغة ولا دين ولا تاريخ ولا تقاليد ! لابد أن يكون هؤلاء المردة من جنس غير الجنس ومن بلد غير البلد، واتجهت وساوسهم نحو جمال عبد الناصر، ثم أرادوا عيونهم الزائغة في البحر وفي الجو فرأوا سفينة تحمل السلاح إلى الجزائر فصادروها، وأبصروا طائرة نقل الأبطال فاقتنصوها، ثم فركوا أكفهم من السرور وصاحوا: لقد كسبنا المعركة ! عرفنا من أين يأتي السلاح، وقبضنا على من يضربون به ! لا سلاح ولا ضرب بعد اليوم ! ثم بالغوا في الحيطة وغالوا في الحذر، فنقلوا ابن بيلا وإخوانه الأربعة إلى فرنسا في حراسة خمسة آلاف من الجنود الشداد كل رجل يحرسه ألف. وحملقت فرنسا في وجوه المخطوفين المخوفين الذين أصلوها النار والعار وهي تحسبهم من أرض غير الأرض فإذا هم حفدة الأبطال الذين قهروا جيوشها سبعة عشر عاما بقيادة الأمير عبد القادر، وأربعة عشر عاما أخرى بقيادة من خلفوه، لا يزالون يحرون على أعراقهم من البطولة والصبر والتضحية لم تستطع أن تقتل فيهم الروح العربية بالتعليم المسموم والإبادة المنظمة والفتنة الشديدة والعزلة التامة والاحتلال الطويل. ولم تستطع أن تفصلهم عن قوميتهم العامة بالحواجز المادية والمعنوية، ولا أن تخفت في دمائهم أصوات للقرون الأربعة عشر من التاريخ المشرق بأضواء النبوة الهادية والخلافة العادلة والفتوح المحررة والحضارة المعمرة. فما هو إلا أن فعلت فعلتها الحمقاء باختطافها الزعماء حتى ثارت في نفوسهم حمية الجنس وطغت في رءوسهم حفيظة الدم فغضبوا وغضب لهم خمسة وثمانون مليونا من بني عمومتهم من مراكش إلى الكويت. وكان مظهر هذه الغضبة إضرابا عاماً شل الحركة في جميع البلاد العربية يوما من الأيام ! ولم نعلم فيما وعاه التاريخ انتفاضة إجماعية كهذه الانتفاضة من أمة زعم الاستعمار انه مزقها دولا وأوطانا لكل دولة رسوم ولكل وطن تخوم.

إن ثورة الجزائر التي ظلت ست سنين مستعرة الأوار تأكل الأرض وما عليها من إنسان وحيوان وعمران وزرع، هي كما ذكرت الفصل الختامي لمأساة ظلت تمثلها فرنسا على مشهد من العالم أربعة أجيال كوامل. وعما قريب سينسدل الستار على أشلاء الاستعمار وأطلاله وأوزاره في أرض الفاتح العربي عقبة ابن نافع، وسيرى الجزائريون أن وطنهم بفضل ما بذلوا في سبيله من أنفس وأموال قد تطهر من المحتلين المتطفلين الذين رتعوا في مرعاه الخصيب ثلاثين ومائة عام يخضمون أرزاقهم خضم الخنازير، ويحتلون بلادهم احتلال الصراصير، ويفسدون أخلاقهم إفساد الجراثيم. على أن النفوس التي قتلت ستعوضها الولادة، والديار التي هدمت ستجددها العمارة، والزروع التي أهلكت سيعيدها الغراس؛ ولكن قتيلين من قتلى هذه الحرب الطحون لن يعوضا بالولادة ولا بالعمارة ولا بالغرس، هما شرف فرنسا وضمير العالم ! أما شرف فرنسا فإنه لو كان باقياً لما استجاز بنوها الذين يزعمون أن آباءهم كانوا أول من ثار على الطغيان وأعلن حقوق الإنسان أن يُغيروا بسبعمائة وخمسين ألفاً منهم مسلحين بأفتك الأسلحة وأحدث العتاد على عشرة آلاف منا لا يملكون سلاحا غير الإيمان، ولا عتاداً غير الصبر، ولا زاداً غير لقيمات لا تكاد تمسك الرمق. فلما أعياهم النصر على هذه الفئة الصابرة المتفرقة على شعاف الجبال ومخارم الأودية ومكامن العراق، عادوا إلى الشيوخ والنساء والأطفال فسحقوهم بالقنابل ومزقوهم بالرصاص، ولا ذنب لهؤلاء وأولئك إلا أن لهم كيانا متميزا يحافظون عليه، ووطناً خاصا يدافعون عنه.

وأما ضمير العالم فإنه لو كان حيا لما سكن سكون الجماد وقر قرار الحجر في رجفة من الصراع الحيوي الدموي دام ست سنين بين دولة كبيرة تريد أن تسمن وتطيش، وأمة صغيرة تريد أن تأمن وتعيش !.

لقد قتل الفرنسيون فيها مليونا من شباب العرب الأبرار على حين ظل العالم الغربي يتفرج بمشاهد الدماء والأشلاء في ساحة الجزائر، كما يتفرج الأطفال بصراع الدمى على مسرح العرائس !.

ولكن قل لي بربك: هل كان الضمير العالمي حيا يوم رضي أن يخرج الاستعمار. مليون عربي من ديارهم وأموالهم ليمنحها عدوة الله وعدوة الناس إسرائيل؟

إن ضمير العالم احتُضر في فلسطين ثم قبر في الجزائر، فلم يبق للمجاهدين الجاهدين إلا روح الله وعون الأحرار ونخوة العرب !.